الفصـل التاسع

من النيـل إلى الفـرات

كان تصور هرتزل لإنشاء الدولة اليهودية في المشرق العربي سيبدل الأوضاع في منطقة الشرق الأوسط، وسيأتي بنظم ومعادلات تضاد بعضها بعضًا، وسيخلق عداوات، وتوقع أن من سيسود هناك هو القوي لأن منطقة لا يحكمها أهلها وفيها ما فيها من مشاكل داخلية وتَخلُّف حضاري هي مدعاة للأمم المتنفذة في العالم لكي يكون لها دور محوري في أوضاعها، لذا رأى هرتزل بأن من يود أن يعيش في تلك المنطقة يجب أن تكون القوة المؤثرة بجانبه، لأن منطق حق القوة أقوى من قوة الحق، فعلاقات الدول اليوم وغدًا ستظل تحكمها القوة أو هكذا كان يرى.

لقد أراد هرتزل منذ البداية أن يكون المشروع الذي يتحمس له قوي ومبني على أساس متين، وهو الذي خبر السياسة الدولية في عصره، كونه مثقف وحيث أنه كان يعمل مراسلاً لإحدى الصحف، ذلك العمل الذي كان يتيح له أن يطلع على دسائس السياسة العالمية، وعلى كيف كانت المنافسة بين الإمبراطوريات البريطانية والفرنسية والألمانية والعثمانية، كل هذا الحيز من إتاحة المعلومات وقضايا الحروب والنزاعات، جعل هرتزل يمسك بطريقة أو بأخرى بتلابيب السياسة العالمية، فعندما خلص إلى رأيه بأن القوة هي التي تصنع كل الأهداف، ذهب إلى انجلترا وراح يلتقي مع العمال اليهود المتحمسين، وصار يقدم نفسه لهم على أنه من سيدافع عنهم بل وسيكون قائدًا لكل يهود العالم.

لم يكن هرتزل صاحب سلطة، ولم يكن متاحًا له مقابلة السياسيين والزعماء في الدول الأوروبية فهو ليس أكثر من صحفي يعمل مراسلاً لإحدى الصحف وليس أكثر، لكن توجهه للعمال اليهود وللجاليات اليهودية كان الهدف منه هو أن تضغط الجاليات اليهودية على أغنياء اليهود الأوروبيين، وتطالبهم بالسعي لدى الحكومات الأوروبية لأجل الحصول على دعم لحركة هرتزل، التي لقيت ترحيبًا كبيرًا من كثير من أغنياء اليهود، وتحمس لها القوميون اليهود الذين وقفوا بجانب علمانية هرتزل، وتأثروا بالمجتمعات الأوروبية التي اتجهت إلى الدولة القومية.

هذا، وحينما نضجت الفكرة دعي إلى المؤتمر الصهيوني الأول فحضره كافة الطبقات اليهودية في العالم، حضره البرجوازيون والقوميون والوطنيون، والطلاب والعمال والاشتراكيون والثوريون والتجار والمتدينون ورجال المال والأعمال، كان مؤتمر بازل الصهيوني عام ١٨٩٧م مهرجانًا ضخمًا حضره جمع كبير من رجال الصحافة والإعلام، وعمل ضجة إعلامية كبيرة ألهبت حماس التيار القومي اليهودي الذي وجد تأييدًا من الرأسمالية الغربية لأجل تدشين مشروع اقتصادي كبير بحجم إنشاء دولة رأسمالية في منطقة ستكون مرتكزًا دائمًا لأوروبا الرأسمالية.

بعد انتهاء المؤتمر قال هرتزل لمحدثيه من الصحفيين، قد تسخرون مني إذا قلت بإننا قد أقمنا الدولة اليهودية في فلسطين، بعد خمسين عامًا تحققت نبوءة هرتزل، كان "ماكس بودنهماير" أحد رفاق هرتزل ومستشاره، وكان قد حضر معه أيضًا المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة بازل، وكان يعلم حتى قبيل انعقاد المؤتمر، بأن السلطان العثماني كان قد رفض رفضًا قاطعًا كل الإغراءت التي قدمها هرتزل لتركيا لقبول الموافقة على هجرة اليهود إلى فلسطين، وفي هذا قال بودنهايمر بينما كان في سفينة تعبر به مضيق الدردنيل في تركيا، "إن لأحلامنا أجنحة لا تعرف الحدود، وإن المنطقة ما بين نهري النيل والفرات يجب أن تفتح أمام الاستيطان اليهودي لتحقيق الوعد الإلهي لليهود بالدولة اليهودية الكبرى".

الحلم الصهيوني مبني على ما جاء في الكتاب المقدس عند اليهود، ذلك الذي يقول في سفر التكوين:

"٨ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ عَقَدَ اللهُ مِيثَاقًا مَعْ أَبْرَامَ قَائِلاً: سَأُعْطِي نَسْلَكَ هَذِهِ الأَرض مِنْ وَادِي الْعَرِيشِ إِلى النَّهْرِ الْكَبِير، نَهْرِ الْفُرَاتِ ١٩ أَرْضَ الْقَيْنِيِّينَ وَالْقَنِزِّيِّينَ، وَالْقَدْمُونِيِّينَ ٢٠ وَالْحِتِّيِّينَ وَالْفَرَزِّيِّينَ وَالرَّفَائِيِّينَ ٢١ وَالأَمُورِيِّينَ وَالْكَنْعَانِيِّينَ وَالْجِرْجَاشِيِّينَ وَالْيَبُوسِيِّينَ".

Greater
Israel's
Borders
Konya
Antalya
Içel
(Mersin)
Diyarbakir
Tabriz
Rasht
Zanjān
Qazvin
Arbil
Mosul
Karkūk
Kermānshāh
Arāk
Nicosia
CYPRUS
Aleppo
Latakia
SYRIA
Hims
Beirut
LEBANON
Damascus
Baghdad
Haifa
ISRAEL
West Bank
Amman
IRAQ
Port Said
Jerusalem
Alexandria
Gaza Strip
Suez
JORDAN
Al
'Aqabah
Cairo
Al Jizah
An Nāṣiriyah
Al Başrah
Ahvāz
Abādān
Kuwait
KUWAIT
Tabūk
Hafar
al Bāṭin
Asyūt
EGYPT
Luxor
Al Jubayl
Buraydah
Ad Dammām
Dhahran
BAHRAIN
Aswān
Medina
Riyadh
SAUDI
Yanbu'
al Baḥr
ARABIA
Halā'ib

رغم كل المتاعب التي كانت تعانيها الخلافة العثمانية، فإنها باتت تُـدرك حقيقـة الخطر الصهيوني الذي كان يحيق بأرض فلسطين، ذلك الخطر الذي كان يتمثـل بالسعي إلى استيطان فلسطين في الوقت الذي كـان هرتـزل وحلفـاؤه يعـدون للمؤتمر اليهودي الأول، كان العثمانيون يتابعون ما كان ينشره مؤيدوا الاستيطان اليهودي في صحف الدول الأوروبية، فقد كتب البروفسور "فيتـال" فـي إحـدى الصحف بعد أن أيقن رفض السلطان العثماني لمطالب الحركة الصـهيونية، قـال فيتال إن تفكيرنا الآن منصب على إقامة وطن يهودي تحت الحماية الدولية بعـد أن صار الباب التركي موصودًا أمام هدفنا، وقد عنى قول فيتال هذا الكثير للدولة العثمانية، وأدرك السلطان العثماني خطورة ما قد تؤول إليه الأوضاع في فلسطين والمنطقة، كأن تتدخل دول أخرى مثلاً للمساعدة في تحقيق المشروع الصهيوني، وهو ما جعل تركيا ترسل مندوبًا لحضور مؤتمر بازل للمراقبة عن قرب لمـا قـد سيصدر عن المؤتمر.

كتب "أحمد توفيق" باشا سفير الدولة العثمانية فـي بـرلين آنـذاك إلـى وزارة الخارجية في تركيا: "إن هناك خطة جادة لتأسيس دولة يهودية في فلسطين، وإن المستوطنين اليهود بفلسطين يعملون على بسط نفوذهم ونشر الفكر الصـهيوني في بقاع فلسطين المختلفة، وإن قرارات المؤتمر الأول تشير بشكل خفي إلى هذا الهدف".

ورغم كل محاولات هرتزل للحصول على موافقة السلطان العثماني كما أسـلفنا، فقد فشل في أن يجد مدخلاً واحدًا لكي يتسلل منه، ووجد أن كل الأبواب صـارت مقفلة في وجه مشروعه، فمن مواقف السلطان العثماني فـي وجـه محـاولات الحركة الصهيونية، أنه قال للكونت البولوني "فيليب دي نيولنسكي" وكان الأخيـر صديقًا لهرتزل، قال السلطان عبد الحميد "إذا كان هرتزل يكن لك الصـداقة كمـا أكنها لك، فمن المناسب أن تبلغه أن يقف عند هذا الحد ولا يخطو خطوة أخـرى، إن ملكية هذه الأرض لا تعود لي شخصيًا ولا إلى الحكومة العثمانية، إنهـا ملـك

للشعب المسلم الذي قدم دمه دفاعًا عن هذه الأراضي، فإذا كان لابد من ترك هذه الأرض فلن يكون ذلك إلا بإهدار الدم".

كان رفض الدولة العثمانية للمشروع اليهودي واضحًا وجليًا، وكان يدل على النظرة البعيدة للسلطان عبد الحميد الذي ربما تخيل ما قد سيأتي من بعد تحقيق مشروع كالمشروع الصهيوني في فلسطين، حيث ستكون فرصة للدول العظمى لزيادة نفوذها في المنطقة.

لقد أثبتت الأيام بأن السلطان عبد الحميد كان مصيبًا حينما وقف بحزم أمام مطالب هرتزل، فلقد رأينا كيف آلت الأمور بعد خلق الكيان الإسرائيلي في فلسطين، لم تحل المشكلة اليهودية، وها هي الستين عامًا التي مرت منذ إنشاء إسرائيل تثبت ذلك، هذا بالإضافة إلى ما حل بشعب كامل هو الشعب الفلسطيني صاحب الأرض نتيجة لمشروع الدولة اليهودية.

إن ما يلفت النظر هو أن هرتزل توقَّع إنشاء دولة لليهود، وتوقع انقلاب في العلاقات العامة بين هذه الدولة ومحيطها ممن يعيشون حولها من بشر، وهو ما يُفسر المسئولية التي تقع على أصحاب الشأن فيما قد تؤول إليه الأمور تجاه الدولة اليهودية مع مرور الزمن، ما دام الرفض العربي والإسلامي مستمرًا للكيان الصهيوني، فإن المشروع الصهيوني لم يحقق النجاح بعد حتى وإن علت إسرائيل علوًا كبيرًا، وسيظل الحكم للأيام.

خديعة بريطانيا للشريف حسين بن علي:

"الشريف الحسين بن علي"، هو الحسين بن علي بن محمد بن عبد المعين بن عون، من أحفاد أبي نمي بن بركات الحسني الهاشمي القرشي (١٨٥٤ - ١٩٣١م)، أول من نادى باستقلال العرب عن الإمبراطورية العثمانية وقاد الثورة العربية الكبرى سنة ١٩١٦م، وآخر من حكم مكة من الأشراف الهاشميين.

ولد الشريف حسين في الآستانة بتركيا حيث كان أبوه منفيًا فيها، انتقل مع والده إلى مكة وكان عمره ثلاث سنوات، نشأ وتعلم وتفقَّه ونظم الشعر وتعلم الفروسية والصيد، أحبه عمه الشريف "عبد الله باشا" أمير مكة فوثق به وعهد إليه بالمهمات، أحكم صلته بالقبائل في نجد، ولما مات أبوه وعمه وآلت إمارة مكة إلى عمه الثاني "عون الرفيق"، لم يحتمل العم تدخل الشريف حسين في شؤون الإمارة، التي كانت تابعة للدولة العثمانية في ذلك الوقت، فما كان من عمه إلا أن طلب من السلطات العثمانية إبعاده من الحجاز، فتم نفيه إلى الأستانة، وصار فيها من أعضاء مجلس "شورى الدولة".

أقام في تركيا إلى أن توفي عمه "عون الرفيق"، ثم توفي عمه الثالث "عبد الإله" فعيِّن أميرًا لمكة سنة ١٩٠٨م فعاد إليها، وقاد بحملة إلى بلاد عسير بالحجاز، كانت نجدة للترك، فقاتل "الإدريسي" في عسير، وفي مسعى بريطانيا لتقويض أركان الخلافة العثمانية، استخدمت النزعة القومية لتحقيق هدفها فشجعت على إنشاء جمعية الاتحاد والترقي في تركيا التي تنادي بتفوق الأتراك وفصلهم عن العالم العربي، ولما نشبت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤م، واشتدت جمعية "تركيا الفتاة" السرية في العمل بواسطة حزبها العلني "الاتحاد والترقي" على تتريك العناصر في الدولة، فقتلت جمهرة من حملة الفكرة العربية وطلائع يقظتها الحديثة، وشرَّدت الكثيرين، ونمت في بلاد الشام والعراق والحجاز روح النقمة على الترك والدعوة إلى الانفصال عنهم.

انتهز البريطانيون الفرصة، وهم في حرب مع دولة آل عثمان وحليفتها ألمانيا، فاتصلوا بالشريف حسين، وكاتبوه من مصر، وكان على غير وفاق مع موظفي "الدولة" العثمانية في الحجاز، فنهض وأطلق رصاصته الأولى بمكة سنة ١٩١٦م، حاصر من كان في البلاد الحجازية من عساكر الترك، وأمده الإنكليز بالمال والسلاح، ونُعت بالملك "المنقذ"، ووجه ابنه فيصل إلى سورية فدخلها مع الجيش البريطاني فاتحًا، وبانتهاء الحرب العالمية (سنة ١٩١٨م) تم استيلاء الحسين على الحجاز كله، وأرسل ابنه الثاني "عبد الله" بجيش ضخم لإخضاع

واحتي "تربة" و"الخُرمة" في شرقي الطائف، وكانتا مواليتين لابن سعود الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن، زعيم نجد في ذلك الحين، فعسكر بينهما، فباغته رجالهما يقودهم بعض أتباع ابن سعود سنة ١٩١٩م فانهزم عبد الله بفلول قليلة من عساكره، وأضاع الحسين في هذه الحملة أكبر قوة جمعها.

تداعت الأمور أكثر، فأخرج الفرنسيون ابنه فيصل من سورية بعد معركة ميسلون سنة ١٩٢٠م واحتلوها، ولما استنجد بعض زعمائها بالحسين، وجَّه إليها ابنه "عبد الله" لكي يثأر لأخيه، أو ليجمع على حدود سورية قوة تكون نواة لجيش يقلق المحتل، اقترب عبد الله من سوريا، ونزل ببلدة عمّان (عاصمة الأردن حاليًا) ودعاه الإنكليز إلى القدس، فاتفقوا معه على أن تكون له إمارة "شرقي الأردن" فأقام بعمان، وتناسى ما جاء من أجله.

ولما استفحلت ثورة العراق على الإنجليز، ساعدوا فيصل بن الحسين على اعتلاء العرش في بغداد فتولاه، وأصبح للحسين جناحان قويان: فيصل في شمال شبه الجزيرة، وعبد الله في شمالها الغربي. ولما حاول ابن سعود أن يتقرب إليه راغبًا في الصلح وكان الحسين قد زار عمان سنة ١٩٢٤م وبايعه الناس بالخلافة، عاد إلى مكة ملقبًا بأمير المؤمنين، فأراد أهل "نجد" الحج، فلم يأذن بدخولهم الحجاز، فاشتد توتر الحال بينه وبين ابن سعود، وأقبلت جموع من نجد وتربة والخرمة إلى مدينة "الطائف" فمزقت جيش الحسين المرابط فيها، واحتلتها، وسرى الذعر إلى مكة.

ولما اتصل الشريف حسين بالقنصل البريطاني في جدة طالبًا العون، أجابه هذا بأن حكومته قررت الحياد، اجتمع بجدة بعض ذوي الرأي من أهلها وأهل مكة، فاتفقوا على نصح الحسين بالتخلي عن العرش لكبير أبنائه "علي" ففعل، وانتقل من مكة إلى جدة سنة ١٩٢٤م ثم ركب البحر إلى "العقبة" التي كانت تقع عند آخر حدود الحجاز في الشمال، وكانت في ولاية ابنه عبد الله، فأقام بضعة أشهر، ثم أخبره ابنه عبد الله بأن البريطانيين يرون أن إقامته فيها قد تحمل "ابن سعود" على مهاجمتها، وتلقى إنذارًا بريطانيًا بوجوب رحيله عنها، ووصلت إلى مينائها

مدمرة بريطانية، ركبها وهو ساخط، إلى جزيرة قبرص سنة ١٩٢٥م فأقام ست سنين في قبرص ومرض، فأذن الإنجليز بسفره إلى عمّان، فجاءه ابناه فيصل وعبد الله، وصحباه إلى عمان، فمكث معتلاً ستة أشهر وأيامًا، ووافته المنية، فحمل إلى القدس، ودفن في المسجد الأقصى. (عن ملوك العرب).

لكن الأمور لم تكن فقط بذاك الاختصار كما ورد في الحديث السابق عن الشريف حسين بن علي، فقد يكون من المفيد للقاريء العربي الإطلاع على تطورات الأحداث خلال الحرب العالمية الأولى ومقارنتها بما حدث بعد ذلك:
نشبت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ م، ونمت روح النقمة على العثمانيين في بلاد المناطق العربية خصوصًا في الشام والعراق والحجاز، وحلم العرب في الاستقلال من تبعية الحكم التركي العثماني، فانتهز البريطانيون الفرصة بينما هم في حرب مع دولة آل عثمان والألمان، اتصلوا بالشريف حسين من مصر، ووعدوه بخلافة عربية إسلامية، من مصر إلى بلاد فارس ما عدا مصالحهم في الكويت وعدن والساحل السوري إن هو عاونهم وثار على العثمانيين.

وكان قد تم وضع مباديء الثورة العربية بناء على الاتفاق الذي تم بين الشريف حسين حاكم مكة وبين قادة الجمعيات والمنظمات العربية في سوريا والعراق، ضمن ميثاق قومي عربي موحد يهدف إلى إقامة الدولة العربية الموحدة، وعلى ذلك تمَّت مكاتبات ومراسلات بين الشريف حسين بن علي وهنري مكماهون ممثل ملك انجلترا في مصر، بعد أن أرسل "الشريف حسين" ابنه "فيصل" إلى دمشق سنة ١٩١٥م لكي يتصل بزعماء الحركة القومية العربية وعرض الأمر عليهم فباركوا القيام بالثورة، وتعبيرًا عن الموافقة ومباركة الحركة أعطت جمعيتي "العربية الفتاة" و"العهد" فيصل بن الحسين خريطة لحدود الدولة العربية لكي تعينهم أثناء الحرب، كما وضعوا لائحة بها عدة مطالب يريدون الحصول عليها عند نيل الاستقلال أو ما سمي بروتوكول دمشق، وهو البروتوكول الذي وضعه العرب عند موافقتهم على إقامة الثورة العربية الكبرى ومبايعة قيام الثورة للشريف

حسين، وقد وضعوا به عدة مطالب لكي يتم التفاوض عليها مع بريطانيا بعد قيام الثورة، وكانت تلك المطالب هي:

"إلغاء الامتيازات الأجنبية، وعقد تحالف دفاعي بين بريطانيا والدولة العربية المستقلة، ومنح بريطانيا الأفضلية في الشؤون الاقتصادية، وأن تعترف بريطانيا باستقلال البلاد العربية الواقعة ضمن الحدود، شمالاً والتي تبدأ عند خط مرسين واطنة وتمتد على أورفة وماردين وجزيرة عمر ثم أخيرًا حدود فارس، أما من ناحية الشرق فهي كانت حدود إيران حتى الخليج العربي وفي الجنوب كان المحيط الهندي ما عدا جزء عدن، وأما من ناحية الغرب فكان البحر الأحمر والأبيض المتوسط حتى مرسين في تركيا".

وهكذا، فقد احتدم الخلاف أكثر بين العرب والعثمانيين خصوصًا عندما تم تعيين "وهيب باشا" العثماني بأن يكون واليًا على الحجاز، وذلك من أجل أن يجمع في قبضة يده السلطة على الحياة المدنية والعسكرية وبالتالي محاولة القضاء على الشرافة وحكم الشريف حسين، وهكذا أصبح الاحتدام بين الدولة العثمانية والشريف حسين فبادرت بريطانيا بأن تجعل نفسها حليفًا للشريف حسين بالتطميع في إقامة الدولة العربية التي طالما حلم بها كل العرب.

(انظر مراسلات الحسين – مكماهون في قسم الوثائق في نهاية هذا الكتاب)

بدأت المراسلات بين الحسين ومكماهون في ١٩١٢م عند زيارة "عبد الله ابن الشريف حسين" للمعتمد البريطاني في القاهرة "كتشنر" ليتباحثا في شأن الوضع العربي العثماني في الحجاز، وعن موقف بريطانيا إذا ما نشبت حرب بين الحسين والاتحاديين في تركيا، كان اللقاء بالنسبة لبريطانيا مثمرًا، فعلى الأقل أصبحت بريطانيا على دراية لما يطمح إليه العرب، وستستغله إذا ما تبدلت الظروف، فقد كانت في ذلك الوقت على علاقة حسنة مع الخلافة العثمانية، فلما ساءت بعد ذلك العلاقة بين تركيا وبريطانيا حينما زادت أطماع الأخيرة في الممتلكات العثمانية، راحت بريطانيا تُعيد النظر في العرض الذي كان قد طرحه عليها عبد الله ابن

الشريف حسين، فاستأنفت المفاوضات سنة ١٩١٤م وتم إعادة الاتصالات والتجهيز للحرب والثورة على تركيا.

كانت الرسالة الأولى التي أرسلها الشريف حسين إلى المعتمد البريطاني في القاهرة هي وثيقة بروتوكول دمشق القومي العربي، لكي يكون الأساس العام للتحالف العربي البريطاني ضد الأتراك، لكن بريطانيا ومعها فرنسا الحليفتين ضد دولة العثمانيين خدعتا العرب، واستعملتهم بريطانيا كطعم ضد الأتراك لتحقيق مصالح الدولتين، فعملت بريطانيا وفرنسا اتفاقا سريًا خلف ظهر الحلفاء العرب وتقاسمتا مغانم دولة العثمانيين ولم تكن الحرب قد انتهت بعد، فكانت معاهدة "سايكس – بيكو سنة ١٩١٦ م" خديعة للعرب.

وعلى هذا الأساس عملت القوات العربية بقيادة الأمير فيصل على نسف خط سكة حديد الحجاز الذي كان يربط بين الحجاز والخلافة العثمانية، واحتلت ينبع والعقبة التي اتخذتها القوات العربية نقطة ارتكاز لها، لتمولها بريطانيا بالإمدادات العسكرية، وفي ثلاثة أشهر فقط منذ بدء إعلان الثورة تم الاستيلاء على مدن الحجاز الكبرى باستثناء المدينة المنورة التي بقيت محاصرة حتى نهاية الحرب، استطاع أفراد القبائل مساعدة ضابط المخابرات البريطاني الشهير "لورنس" من منع وصول الدعم التركي للجيش في منطقة الحجاز والمدينة المنورة ومعان ودمشق والعقبة وأخيرًا حلب في عام ١٩١٩م، وليس هذا فحسب بل إن الجيش العربي بقيادة فيصل بن الحسين هو الذي استولى على الأردن، وبذلك تمت محاصرة الحاميات التركية في فلسطين، فكانت مهمة الجيش البريطاني بقيادة الجنرال اللنبي سهلة في الدخول إلى القدس واحتلال فلسطين.

وأما المراسلات بين الشريف حسين ومكماهون فقد تمت في إطار ما كانت تجريه الاستخبارات البريطانية في مكتبيها بمصر وبالهند، وذلك حول إمكانية قيام ثورة عربية ضد الأتراك العثمانيين من جهة، ولطمأنة رعايا بريطانيا من المسلمين بسلامة الأماكن المقدسة من جهة أخرى، وقد جرت المراسلات على مرحلتين:

المرحلة الأولى: بواسطة الشريف "عبد الله" النجل الثاني للشريف حسن بن علي، الذي حاول معرفة موقف الحكومة البريطانية في حال اضطرار الشريف إلى الدفاع عن الحجاز، وحمايته من تعديات الأتراك، وكان ذلك بينما هو يمر بالقاهرة في طريقه إلى اسطنبول، حيث كان يلتقي اللورد "كتشنر" المعتمد البريطاني، و"رونالد ستورز" السكرتير الشرقي في دار الاعتماد، قال اللورد كتشنر: "إذا ساعدت الأمة العربية انجلترا في هذه الحرب التي فرضتها تركيا علينا فرضًا، فإن انجلترا ستضمن عدم وقوع تدَّخل في الشئون الداخلية لجزيرة العرب، وستقدم للعرب كل مساعدة ضد أي عدوان خارجي".

المرحلة الثانية: وقد بدأها "وينجيت" بواسطة السيد "علي الميرغني" الذي اقترح بعد اتصالاته في مذكرة من الخرطوم مؤرخة في ٦ مايو ١٩١٥م، بأن تلتزم بريطانيا بمطالب الحسين، وعلى ذلك استكملت الاتصالات مع "هنري مكماهون" أو ما سمي "مراسلات الشريف حسين – مكماهون".

بدأت المراسلات بين الشريف حسين ومكماهون في ١٤ يوليو ١٩١٥ م واستمرت حتى ١٠ مارس ١٩١٦ م وبلغ مجموع الرسائل المتبادلة فيها عشر رسائل، وكان هدف الإنجليز منها إشعال الثورة ضد الأتراك، الرسالة الأولى التي بعثها الشريف حسين حملت إلى مكماهون مقترحات محددة بشأن حدود الدولة العربية التي طالب باستقلالها، وأن توافق بريطانيا على إعلان خليفة عربي للمسلمين، وألمح الشريف حسين أن هذه المطالب نهائية للبلاد العربية، ولا يقبل العرب المساومة عليها، وفي أغسطس ١٩١٥م بعث مكماهون برده على رسالة الشريف، وموافقة بريطانيا على أن يكون الخليفة عربيًا عند إعلان الخلافة، لكنه حاول إقناع الحسين بإرجاء الكلام في مسألة الحدود المقترحة للدولة العربية.

لم يكن رد مكماهون سارًا للشريف حسين، فكتب إلى مكماهون رسالة يُعرب فيها عن دهشته لتهربه من مسألة الحدود وهي مسألة جوهرية، فأجابه مكماهون برسالة في ٢٤ أكتوبر ١٩١٥م بتعهدات قوية في قيام الدولة العربية وحمايتها،

وعلى هذا الأساس ظل العرب بعد الحرب يتهمون بريطانيا بأنها لم تف بوعدها لهم.

في ١٥ نوفمبر ١٩١٥م رد الحسين على مكماهون برسالة جاء فيها: "رغبة في تسهيل الاتفاق وخدمة الإسلام واجتناب كل ما من شأنه تعكير صفو المسلمين، واعتمادًا على نيات بريطانيا العظمى ومواقفها الحميدة فإننا نتنازل عن إصرارنا على ضم مرسين وأطنة إلى المملكة" إلا أنه تمسك بولايتي: حلب وبيروت، إلا أن مكماهون بعث إليه برسالة أصرّ فيها على استثناء حلب وبيروت من الدولة العربية، ودعى الشريف حسين إلى البدء بالثورة، فعاد الشريف حسين إلى إرسال مُكاتبة أخرى إلى مكماهون يُبلغه فيها استعداده للتنازل عن منطقة غرب دمشق، حلب، حمص، على أن يكون من حق العرب المطالبة بها بعد انتهاء الحرب.

في ١٠ مارس ١٩١٦م بعث مكماهون برسالة إلى حسين بموافقة بريطانيا على جميع مطالبه عدا أنه طلب استبعاد محمية عدن ومرسين وجنوب العراق وحمص مبدئيًا أن تكون جزء من الدولة العربية، على أن يكون من حقه المطالبة بها بعد انتهاء الحرب.

لم تُسفر تلك الرسائل عن منح العرب أية مطالب، فكان فقط نصيب الشريف حسين أن خلَّد اسمه في التاريخ بوصفه قائد الثورة العربية الكبرى، وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى في عام ١٩١٨م بدأت انجلترا وفرنسا تقسيم أملاك الخلافة العثمانية أو تركة الرجل المريض كما أسموها، وطبَّقوا اتفاقية سايكس بيكو الشهيرة مع تعديل يجعل فلسطين تحت الانتداب البريطاني، وشرع في تنفيذ وعد بلفور بطريقة عملية وجادة على الأرض في فلسطين.

اتفاقية سايكس – بيكو ١٩١٦م The Sykes – Picot:

كانت أنظار الصهاينة ترنو لاستيطان فلسطين، وقد زاد من نشاطهم واهتمامهم سعي الدول الغربية الكبرى لمد نفوذها في الشرق بعد أن تمت الإطاحة بنظام

حكم السلطان العثماني عبد الحميد الثاني الذي لم يتزحزح عن رفضه قيد أنملة للتصريح لليهود باستيطان فلسطين بصفة رسمية، وبتصريح من دولة الباب العالي، كانت القوى الاستعمارية "فرنسا وبريطانيا" تسعى لاقتسام تركة الدولة العثمانية (رجل أوروبا المريض)، فبينما كانت الحرب مستعرة عقدت بريطانيا وفرنسا وروسيا القيصرية اتفاقية "سايكس – بيكو"، حيث مثَّلَ انجلترا في المفاوضات "مارك سايكس" عن بريطانيا و"فرانسوا جورج بيكو" عن فرنسا وشهدت على الاتفاقية روسيا القيصرية بـ "سيرجي سازانوف".

"مارك سايكس" هو الابن الوحيد للسير "تاتون سايكس" البارون الخامس من سيلدمير من زواج غير سعيد مع كريستينا كافيندش- بينتينك، انتهى بتخلي تاتون عن زوجته ماليًا وطلاقها عبر الصحف، عاش مارك متنقلاً بين والدته التي أقامت فيما بعد في لندن، ومزرعة والده في يوركشاير الشرقية ومنزله في قصر سيلدمير، تحولت والدته فيما بعد للكاثوليكية وتبعها هو كذلك، ومما تجدر ملاحظته أن سايكس كان على عكس الغالبية الساحقة من الصهاينة غير المسيحيين الذين يأتون من أوساط بروتستانتية، كان دبلوماسي ورحالة بريطاني وُلد في لندن وتلقَّى تعليمه في موناكو وبروكسل وكمبردج، عمل في الجيش البريطاني بعض الوقت في جنوب أفريقيا ١٩٠٢م، وسافر إلى سوريا والعراق، وكثيرًا ما سافر في صباه مع والده لمناطق الشرق الأوسط ضمن الدولة العثمانية، هذا بالإضافة إلى مناطق أخرى من المستعمرات البريطانية.

مثّل بريطانيا في محادثات اقتسام النفوذ مع فرنسا وروسيا في أراضي الإمبراطورية العثمانية في المشرق العربي والأناضول ووقَّع على اتفاقية سايكس-بيكو، وعُيِّن ملحقًا فخريًا للسفارة البريطانية في اسطنبول، وعُيِّن بسبب خبرته الواسعة في شئون الشرق مساعدًا لوزارة الحرب البريطانية، وكانت وظيفته تزويد مجلس الوزراء بالمعلومات والمشورة حول شئون الشرق الأوسط، ولم يكن سايكس من صانعي القرار إلا أنه كان مؤثرًا جدًا فيه بسبب شهرته كخبير في شئون الشرق الأوسط وحظوته لدى أصحاب السلطة، بل يرى كاتب

سيرة حياته أنه كان القوة المحركة للسياسة البريطانية الخاصة بفلسطين التي أدَّت إلى إصدار وعد بلفور ثم الانتداب البريطاني على فلسطين، أشارت بعض المصادر إلى دوره في إصدار وعد بلفور، بعد موته اعتبرته الحركة الصهيونية على لسان "ناحوم سوكولوف" صديق حاييم وايزمان "*سقط كالبطل إلى جانبنا* .."

وأما فرانسوا جورج بيكو (١٨٧٠ – باريس ١٩٥١م)، فهو سياسي ودبلوماسي فرنسي وقّع اتفاقية سايكس - بيكو عن الجانب الفرنسي بحضور سيرجي سازانوف ممثل روسيا على أن يتم التفاهم مع روسيا على مناطق أخرى تهم روسيا خاصة، هذا وقد أصبح بيكو فيما بعد مسئولاً عن إلحاق مناطق المشرق العربي للنفوذ الفرنسي والتأسيس للانتداب الفرنسي على سوريا، كانت اتفاقية سايكس بيكو عبارة عن تفاهم سري بين فرنسا وبريطانيا لاقتسام منطقة الهلال الخصيب بعد تهاوي الإمبراطورية العثمانية التي كانت تسيطر على تلك المنطقة حتى الحرب العالمية الأولى، تم التفاهم على الاتفاقية بين تشرين الثاني ١٩١٥م وآيار ١٩١٦م، وكانت على صورة تبادل وثائق تفاهم بين وزارتي خارجية بريطانيا وفرنسا وروسيا القيصرية آنذاك، إلا أن أمر الاتفاقية قد تم فضحه بعد تولي الشيوعيين الحكم في روسيا عام ١٩١٧م مما أثار الشعوب التي مستها الاتفاقية وكانت ردة الفعل الشعبية المباشرة قد ظهرت في مراسلات الشريف حسين ومكماهون البريطاني.

(نص اتفاقية سايكس بيكو – انظر قسم الوثائق في نهاية الكتاب)